المحاكاة الصّوتية وقيمها الجمالية في الحديث النبوي الشريف

بقلم

د. ميلود عمارة (*)

ملخص

تعدّ ظاهرة المحاكاة الصّوتية من أهمّ الوسائل الأسلوبية، وهي واحدة من طاقات كثيرة تمتلكها اللّغة في التعبير، والإيحاء، وإبداع الدّلالة، وتهدف إلى محاولة ربط مستوى البناء الحسّي للكلام بمستوى البناء الدّلالي في اللّغة، وكذا إدراك وجود العلاقة الطبيعية بين اللّفظ ومدلوله، راميةً بذلك إلى معرفة ما إذا كان المستوى الصّوتي الذي هو المِهاد الذي يحتضن البناء اللغوي؛ اعتباطيا، أو تغلب عليه العلّة والقصد ؟

انطلاقا من هذه الفكرة؛ جاء هذا البحث ليدرس الأحاديث النبوية كأنموذج تطبيقيّ تتجلّى من خلاله هذه الظاهرة بإبراز قدرتها الإيحائية والجمالية، ومُشاكلتها اللفظية، لمحاولة استنطاق وتجسيد الدّلالة في ألفاظ الحديث النّبوي الشريف.

وقد سلك البحث؛ المنهج الوصفي والتحليلي، من خلال ثلاثة محاور أساسية، وهي:

المحور الأوّل: العلاقة بين الصوت والدلالة في تراثنا اللغوي

المحور الثاني: الحديث النبوي في الدرس الصّوتي (مرتبة المحاكاة الصّوتية.)

* أستاذ محاضر – أ- قسم الحضارة الإسلامية- معهد العلوم الإسلامية- جامعة الوادي.

miloud.am84@gmail.com

المنارة للاستشارات

المحور الثالث: مشاكلة الدّال للمدلول في الحديث النبوي (مرتبة المحاكاة البنائية.)

الكلمات المفتاحية:

المحاكاة؛ الصوت؛ الدلالة؛ الأسلوب؛ الحديث النبوي.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين وبه أستعين وأصلي وأسلم على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين، ثم أما بعد:

فقد جاء هذا البحث موضحا فكرة المحاكاة الصوتية؛ باسطا الكلام فيها، محاولا تتبع معالم هذه الظاهرة في أحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام، وقد أسميت بحثي: **المحاكاة الصّوتية وقيمها الجمالية في الحديث النبوي الشريف.**

أهمية البحث: تتلخص أهمية البحث في أنها تلقي الضوء على مظهر مهم من مظاهر الفصاحة النبوية وهي مسألة محاكاة ألفاظه الصوتية للمعاني والأغراض التي يؤمها ويقررها، وقد تجسدت هذه الخاصية الجمالية في أحاديثه المروية إلينا ﷺ

الدراسات السابقة:

ينبغي أن أشير إلى أنّ الدراسات البلاغية عموما، والصوتية خصوصا التي خصت الحديث النبوي الشريف كمدونة تطبيقية؛ تعد شحيحة جدا، وإن وُجدت فهي في ثنايا الكتب والمقالات والبحوث موزعة على أبواب البلاغة والأسلوب وبصورة مقتضبة.

إشكالية البحث: يجيب هذا البحث بجملته على إشكالات تختزل مادة الموضوع، وهي:

- ما طبيعة العلاقة والمناسبة بين مدلول اللفظ وصوته؟

المنارة للاستشارات

- كيف يمكن أن يحاكي اللفظ معناه في الأحاديث النبوية؟
- فيم تجلت ظاهرة المحاكاة الصوتية من خلال متن الحديث النبوي؟

تمهيد: (**مفهوم المحاكاة الصّوتية**):

من خصائص اللغة العربية اشتمال ألفاظها على أصوات تحاكي الأحداث المعبِّر عنها، ولأنَّ الصّوت في اللغة العربية له إيحاء خاص، فهو إن لم يدل دلالة محدودة؛ يدلّ دلالة اتجاه وإيحاء، فيثير في النفس نازعاً يُحرِّضها على قبوله أو النفور منه.

فالمحاكاة الصّوتية أو حكاية الصّوت (من حَكَى الشيءَ أي: أتى بمثله، وحَكَيَ القول، أي: نقله) فهي إذن مشابهة بين الصّوت الناتج عن لفظ بعض الكلمات والأصوات المسموعة في الطبيعة.

ويطلق على هذه الظاهرة أيضا: "تصوير المعنى بجرس الصّوت"، بمعنى ورود الكلام المسموع على قدر المعنى المقصود، ويطلق عيها أيضا: "تجسيد الدّلالة بصوت اللّفظ".

فالمحاكاة في ضوء ما سبق؛ يدور معناها إذا حول دلالة: المشاكلة، والمضارعة، والمضاهاة، والموافقة.

المحور الأول: **العلاقة بين الصوت والدلالة في تراثنا اللغوي** .

أدرك العلماء قديما مدى العلاقة بين الدوال ومدلولاتها، ومنهم الخليل بين أحمد الفراهيدي، إذ أوضح أن الاختلاف بين اللفظين يرجع إلى اختلاف بين طبيعتي الصوتين، الدال أحدهما على صوت الجندب والدال ثانيهما على صوت البازي، وليس هذا الصوت الممتد في (صرّ) بالتشديد إلاّ استشعارا بما في صوت الجندب من استطالة وامتداد، وليس صوت المقطع في (صرصر) بالتضعيف إلاّ حكاية لما في صوت البازي

المنارة للاستشارات

من تقطيع، وهذا التقطيع متمثّل في هذا اللفظ المرجّع المكون من مقطعين هما : "صَرْ" "صَرْ"، ومثل هذا في "صل"، وصلصل في صوت اللجام وهذا يُظهر المحاكاة سواء ظهر الانسجام كليا بين الدال والمدلول، أو اقتصر على جزء من مركبات الدال فسحب.

وعليه يمكن تحليل نظرية المحاكاة إلى جملة من المراتب :

أولها: مرتبة المحاكاة الصوتية وتتمثل في ملاحظة تسمية الأشياء بأصواتها كالجندب لصوته والأخطب لصوته.

ثانيها: مرتبة المحاكاة البنائية، وذلك بأن يصور هيكل اللفظ جملة دلالته أو أن ينعكس بناؤه مراحل معناه؛ فيأتي اللفظ حاكيا مدلوله بمجرد قالبه اللغوي المحسوس؛ فمن ذلك المصادر التي تتأتى على وزن فعلان، مما توالت فيه الحركات للدلالة على الحركة والاضطراب، كالغليان والطوفان والجولان، حيث يكون التقلب والتحرك والاضطراب.

وفي هذه المرتبة من المحاكاة البنائية حاول الفراهيدي تحليل الصيغ الصرفية المزيدة للغوص في سر التآلف بين بناء المسموع اللّغوي ومدلوله، ومن هذا دلالة ما زاد على البناء زاد على المعنى في إشارته إلى الفرق بين نون التوكيد الخفيفة والثقيلة عندما قال : « أنهما للتوكيد، كما التي تكون فضلا؛ فإذا جئت بالخفيفة فأنت مؤكد، وإذ جئت بالثقيلة فأنت أشدّ توكيدا. »(1)

وقد تابع سيبويه أستاذه الخليل في الميل إلى وجود علاقة بين بنية الكلمة ومعناها: « ومن المصادر التي جاءت على مثال واحدٍ حين تقاربت المعاني قولك: النزوان، والنقزان؛ وإنما هذه الأشياء في زعزعة البدن واهتزازه في ارتفاع. »(2)

المنارة للاستشارات

وقد استفاد ابن جني من سابقيه وأخذ يأتي بنظائر ما أتى به الخليل وسيبويه، فذهب مذهباً صوتياً فريداً يربط بين الصوت والفعل تارة، وبين الصوت والاسم تارة أخرى، ويبحث في علاقة كل منهما بالآخر علاقة حسية ومادية متجسدة، فجرس الألفاظ ووقعها فيما يحدثه من أصوات وأصداء سمعية قد يكون متجانساً ومقارباً لنوعية عنده فيقول: « فإنّ كثيرا من هذه اللغة وجدته مضاهياً بأجراس حروفه أصوات الأفعال التي عُبّر بها عنها، ألا تراهم قالوا: قضم في اليابس، وخضم في الرطب. وذلك لقوّة القاف وضعف الخاء، فجعلوا الصّوت الأقوى للفعل الأقوى، والصوت الأضعف للفعل الأضعف. »[3]

وذكر ابن جني في باب: "إمساس الألفاظ أشباه المعاني": «واعلم أنّ هذا موضع شريف لطيف، وقد نبَّه عليه الخليل وسيبويه، وتلقته الجماعة بالقبول له والاعتراف بصحته. قال الخليل: كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدًّا فقالوا: صَرَّ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعًا فقالوا: صرصر. وقال سيبويه: في المصادر التي جاءت على الفعلان: إنها تأتي للاضطراب والحركة، نحو: النقزان والغلبان والغثيان، فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال.»[4]

ويؤكد ابن جني أنّ هذا الرأي والتصور موجود في ألفاظ اللغة كلها، ومن رأى شيئا من ألفاظها لا ينطبق عليه ذلك فإما لعدم تأمّله وتذوقه للألفاظ، أو لأنّ أصول اللغة خافية عنه.[5]

فابن جني تناول هذه المسألة في باب: "إمساس الألفاظ أشباه المعاني" و"سوق الحروف على سمت المعنى المقصود"؛ بمعنى مساوقة الصيغ للمعاني، ومقيما مبدأ التعديل والاحتذاء ثم فكرة تقارب الحروف بتقارب المعاني.

المنارة للاستشارات

وقد أكمل ابن الأثير ما بدأه ابن جني وعلماء اللغة قبله حول مناسبة الألفاظ للمعاني، ويؤكد على أن اللفظ إذا نقل إلى وزن آخر أكثر من الأول فلا بدّ أن يتضمّن من المعنى أكثر مما تضمنه أوّلا. (6) ونشأت من عنا فكرة: " كلّ زيادة في المبنى تدلّ على زيادة المعنى" نحو: خَشُنَ واخشوشن.

يقول ابن القيّم: ((وَلَقَد كنت بُرْهَة يرد عليّ اللَّفْظ لا أعلم موضوعه، وآخذ معناه من قوّة لفظه ومناسبة تلك الحروف لذلك المعنى ثمَّ أكشفه فأجده كَمَا فهمته أَو قَرِيبا مِنْهُ فحكيت لشيخ الْإِسْلَام هَذَا عَن ابْن جني فَقَالَ وَأَنا كثيرا مَا يجْرِي لي ذَلِك ثمَّ ذكر لي فصلا عَظِيم النَّفْع فِي التناسب بَين اللَّفْظ وَالْمَعْنَى ومناسبة الحركات لِمَعْنى اللَّفْظ وَأَنَّهُمْ فِي الْغَالِب يجْعَلُونَ الضمة الَّتِي هِيَ أقوى الحركات للمعنى الْأَقْوَى والفتحة الْخَفِيفَة للمعنى الْخَفِيف والمتوسطة للمتوسط فَيَقُولُونَ عزَّ يعَزُّ بِفَتْح الْعين إِذا صلب وَأَرْض عزاز صلبة وَيَقُولُونَ عزَّ يعِزُّ بِكَسْرِهَا إِذا امْتنع والممتنع فَوق الصلب فقد يكون الشَّيْء صلبا وَلَا يمْتَنع على كاسره ثمَّ يَقُولُونَ عزَّه يعُزُّه إِذا غَلبه قَالَ الله تَعَالَى فِي قصَّة دَاوُد عَلَيْهِ السَّلَام {وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ} وَالْغَلَبَة أقوى من الِامْتِنَاع))(7)

يدعونا ابن القيم هنا إلى تأمّل الألفاظ التي فيها الميم كيف تجد الجمع معقودا بها، ويذكر مثلا: لمّ يلمّ إذا جمع، ومنه: ألمّ بالشيء إذا قارب، ومنه اللّمم، وهو المقاربة، ومنه: التوأم للولدين المجتمعين في بطن، ومنه أمّ الشيء ومنه سميت مكّة أم القرى.

ثمّ يعقّب على ذلك قائلا: وهو أكثر من أن يحاط به وإن مدّ الله في العمر...دون تأمّلها وتدبرها (8)

أمّا العلماء قديما فقد كانوا يسمّون ظاهرة المحاكاة: **المناسبة** بين الألفاظ والمعاني؛ كالسّيوطي والراغب وأضرابهم، وهي ما أسماه المحدثون: "محاكاة الأصوات"، أو التوليد الصوتي. وأيضا ما أسماه بعض المحدثين "الحاسة الموسيقية" هو نفسه ما أسماه

المنارة للاستشارات

الفارابي قديما: "الهيئة الشعرية"، وهي حاسة فطرية مركوزة في الإنسان منذ تكوينه، فيأنس العربي بالكلام الحسن الوقع، وينفر من ضرب آخر لنبوّ جرسه.

في ضوء ما سبق يمكن أن نتساءل: هل هناك فعلا علاقة قوية بين الصّوت والدلالة ؟ نقول بأن أيّ تجربة تقوم بها مع أحد الأولاد الصّغار، بإطلاق صوت حيوان معين، فهو يمثل في ذهنه قبل أن يعرف هذا الحيوان، وذلك انطلاقا من قوّة اللفظ وضعفه، فلمّا يطلق لفظ: "ضرضرة" مثلا يتصور القوة ، على غير سبيل لفظ: "مواء" فلا يتصوّر فيه القوّة كما في الأوّل. وهذا ما يؤكد على قدر صوت اللفظ؛ يأتي المعنى.

كما أنّ الدّراسات الأسلوبية الحديثة، كذلك قد اهتمّت بالدّلالة الصّوتية؛ لأنّ علم الأسلوب هدفه الحقيقي يتمثَّل في البحث عن العلاقات المتبادلة بين الدّوال والمدلولات، ومعنى هذا أنّ البحث الأسلوبي يتسع في بحث العلاقات بين الدوالِّ والمدلولات لتلك الدلالات التي توحي بها البنية الصوتية للكلمة من حيث كونها أصواتًا، لا من حيث كونها موادَّ معجمية لها دلالتها الوضعية المحدَّدة

وإذا كان التخيّر إحدى المواد التي يدرسها البحث الأسلوبي، فإن من الاختيار الصّوتي؛ اختيار الأصوات الدالة بمحاكاة الحدث؛ مثل: وسْوَس، وكُبكبوا ، وزُحزح ، وأفٍّ...وغيرها.

وكل هذه الجهود من اللغويين والنقاد جميعًا دلالة على ما للأصوات من دلالة فنية وجمالية لا يُمكن تجاهلها أو إهمالها عند البحث عن جماليات العمل الأدبي، وعن الوسائل التعبيرية المختلفة المشاركة في تحقيق تلك الجماليات.

المحور الثاني : الحديث النبوي في الدرس الصّوتي (مرتبة المحاكاة الصّوتية.)

المنارة للاستشارات

إذا كان ابن جني قد بيَّن القيمة التعبيرية للحرف الواحد، وهو بعد صوت بسيط يقع في أول الكلمة، ويقع في وسطها تارة أخرى، ويقع في آخرها تارة ثالثة، وهو يؤدي دلالة غير التي يؤديها ما يقاربه في المخرج أو الصفة، إذا كان ذلك كذلك، فقد بيَّن قيمة الحرف حال ترتيبه مع غيره أيضًا، فها هو ذا ابن جني يؤكّد أنّ في ترتيب حروف الكلمة أسرار عجيبة، والحكمة فيها أعلى وأصنع مما ذكر وذلك أنّ العرب ((قد يضيفون إلى اختيار الحروف، وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبر عنها بها ترتيبها، وتقديم ما يضاهي أول الحدث، وتأخير ما يضاهي آخره، وتوسيط ما يضاهي أوسطه؛ سوقًا للحروف على سمت المعنى المقصود، والغرض المطلوب.))[9]

وقد مثّل لذلك ابن جني بألفاظ: وهي: بحث، وشَدَّ، وجرَّ.

ف"بحث" مثلاً تتكوّن من الباء والحاء والثاء على الترتيب، فالباء لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض والحاء لصَحْلِها [10] تشبه مخالب الأسد وبراثن الذّئب ونحوهما إذا غارت في الأرض، والثاء للنفث، والبث للتراب، وهذا أمر تراه محسوسًا محصلً. [11]

وتجدر الإشارة إلى أنّ علماء غريب الحديث قد تنبّهوا إلى هذه الدّلالة الصّوتية، كما بيّنوا قيمة الصّوت البيانية والإيحائية، وذلك حين يأتي في الحديث النبوي الشّريف ما يسمح لهم بالحديث عن هذه القيمة.

ومن ذلك ما ذكره أبو عبيد في حديث النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر نعت أهل الجنة، قال: ((**ويرفع أهل الغُرَف إلى غرفهم في درة بيضاء، ليس فيها قَصْم ولا فصم.**))[12]

المنارة للاستشارات

قال أبو عبيد[13]: قوله: ((القَصْم بالقاف: هو أن ينكسر الشيء فيَبِين، يقال منه: قَصَمْت الشّيء أقصمه قصمًا إذا كسرته حتى يَبين، ومنه قيل: فلان أقصم الثنية إذا كان مكسورها...، وأما الفَصْم بالفاء: فهو أن ينصدع الشّيء من غير أن يبين، يقال منه: فَصَمْت الشيء أفصمه فصمًا، إذا فعلت ذلك به، فهو مفصوم...))[14]

وقد وقف أبو عبيد على دلالة الصّوت التعبيرية من خلال هذا الحديث الشّريف، وبيَّن الفرق بين "الفصم" و"القصم"، على أنّ الفصم: يدلّ على انصداع للشيء من غير أن ينكسر وينفصل بعضه من بعض، أمّا القصم فيدلّ انكسار الشيء حتى يَبين وينفصل بعضه من بعض.

فجعل الصّوت الضّعيف للمعنى الضعيف "الفصم"، وجعل الصّوت القوى للمعنى القويّ "القصم".

والطّريف أنّ هذا عَين ما أثبته أصحاب المعاجم، فذكر منهم ابن فارس أنّ "الفاء والصاد والميم" أصل صحيح يدلّ على انصداع شيء من غير بينونة، من ذلك: الفَصْم، وهو أن ينصدع الشّيء من غير أن يبين[15]. وأوضح في موضع آخر: أنّ القاف والصاد والميم أصل صحيح يدلّ على الكسر.[16]

ومنه ما جاء عَن عَائِشَةَ – رَضِي الله تَعَالَى عَنْهَا– قالَتْ دَخَلَ عَبْدُ الرَّحمانِ بنُ أبي بَكْرٍ ومَعَهُ سِوَاكٌ يَسْتَنُّ بِهِ فَنَظَرَ إلَيْهِ رَسُولُ الله صلّى الله عَلَيْهِ وَسلم فَقُلْتُ لَهُ أعْطِنِي هذَا السِّوَاكَ يَا عَبْدَ الرَّحْمانِ فأعْطَانِيهِ **فَقَصَمْتُهُ** ثُمَّ مَضَغْتُهُ فأعْطَيْتُهُ رسولَ الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم فاسْتَنَّ بِهِ وَهْوَ مُسْتَسْنِدٌ إلَى صَدْرِي.[17]

ومن ذلك أيضا ما ذكره أبو عبيد في حديث أبي هريرة أنه مر بمروان وهو يبني بنيانًا له، فقال: **ابنوا شديدًا وأمِّلوا بعيدًا، واخْضِمُوا فسَنقْضِم.**

المنارة للاستشارات

قوله: « اخْضموا فسنقضم، الخَضْم أشدّ في المضغ، وأبلغ من القضم؛ وهو بأقصى الأضراس، والقضم بأدناها... »(18)

ذكر أبو عبيد ها هنا القيمة التعبيرية لكلّ من الخاء والقاف في لفظي: خَضْمٌ وقَضْمٌ، والتي جاءت دلالتهما محاكية لقوة وضعف أصواتهما، فبيَّن أنّ الخضم أبلغ من القضم، فالخضم بأقصى الأضراس والقضم بأدناها.

فأبو عبيد يقف بنا على دلالة صوتية بيَّنتها القيمة البيانية لكلّ من صوتيْ: الخاء في "خَضْم" والقاف في "قَضْم"، وقد جعل الخَضْم أقوى وأبلغ من القَضْم، ويخالف ابن جني أبا عبيد في الذي ذهب إليه؛ إذ قال في باب: **"إمساس الألفاظ أشباه المعاني"**: « فأمّا مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث، فباب عظيم واسع، ونهج متلئب عند عارفيه مأموم، وذلك أنهم كثيرًا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها، فيعدلونها بها ويحتذونها عليها... من ذلك قولهم: خضم، وقضم، فالخضم لأكل الرطب؛ كالبطيخ والقثاء، وما كان نحوهما من المأكول الرطب، والقضم للصلب اليابس؛ نحو: قضمت الدابة شعيرها، ونحو ذلك. وفي الخبر: "قد يدرك الخضم بالقضم"؛ أي: قد يدرك الرخاء بالشدة، واللين بالشظف. »(19)

وما ذهب إليه ابن جني يؤيده أمران:

1- ما ذهبت إليه الدراسات الصوتية من أن الخاء: "حرف مهموس رخو مستعل منفتح مصمت" والقاف "شديدة مجهورة مستعلية منفتحة"، فالقاف أقوى من الخاء.

2- ما ذهب إليه أبو عبيد نفسه في تفسير هذا الحديث؛ حيث قال: وإنما أراد أبو هريرة بهذا مثلاً ضربه، يقول: استكثروا من الدنيا، فإنّا سنكتفي منها بالدون (20)،

المنارة للاستشارات

فمن رضي بالدون، فحاله شديدة تحتاج إلى القضم لا إلى الخضم، فحاكى لنا الصّوت القويّ المعنى القويّ ، وشابه الصّوت الضّعيف معناه المعنى الضّعيف.

ومما جاء الصّوت فيه بقيمته البيانية آخر الكلمة: ما ذكره ابن قتيبة في حديث النبي صلى الله عليه وسلم أنه دَعا بِلالًا بتمر فجَعَل يجيء به قُبَصًا قُبَصًا، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: **((أنْفِق بلال ولا تَخْشَ من ذي العرش إقْلالاً.))**[21]

قال: ((قُبَص جَمْع قُبْصة، وهو من القَبْص، والقَبْص بأطْراف الأصابع، والقبض بالكف كلِّها))[22] وإنما كان ذلك كذلك؛ لأنّ الضاد فيها من القوة ما ليس في الصّاد، فجاء الحرف القوي للمعنى الأكبر.

هذا في حال البساطة، أما في حال التركيب، فقد تنبه هؤلاء العلماء الأجلاء لهذه القيمة للحرف في حال التركيب، وأشار ابن جني إلى هذه الدلالة؛ حيث ذكر أن سيبويه قال في المصادر التي جاءت على الفعلان: إنها تأتي للاضطراب والحركة؛ نحو: النقزان، والغليان، والغثيان، فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال، وهذا ما سيأتي في المحور الثالث.

المحور الثالث: مشاكلة الدّال للمدلول في الحديث النبوي (مرتبة المحاكاة البنائية.)

يعنى بمشاكلة الدال للمدلول أن هيكل اللفظ يعكس معناه، فيكون المدلول حصيلة ونتيجة للبناء اللفظي فالتكرار والوزن والحروف المتساوقة بترتيب معين كلها عوامل لمعرفة مواطن القوة من الضعف، وهو أحد المؤشرات التي يستأنس من خلالها معرفة مراد المتكلم وميولاته، وقد جاءت هذه الظاهرة واضحة في البناء اللفظي لأحاديث المصطفى عليه الصلاة والسلام، فاختيار المتكلم لألفاظ دون

المنارة للاستشارات

أخرى في سياقات دون أخرى دليل على توخي الخاصية التعبيرية وإصابة البلاغة المقامية.

فمما يبين المشاكلة مسألة التكرار وعلاقته بإيصال المعنى، وذلك كتكرار صوت الهمزة في الأحاديث النبوية الشّريفة، ومنها قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم: ((**والله لا يؤمن والله لا يؤمن، والله لا يؤمن. قالوا ومن ذاك يا رسول الله؟ قال: جارٌ لا يأمنُ جارُه بوائقَه**)) [23] فصوت الهمزة هنا له دلالة خاصّة تعبِّر عن عمق الغضب والانفعال والشدّة، و ربما هذا هو الذي جعل النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلّم يستعمل كلمة: "**بوائقه**" – جمع بائقة وهي الغائلة والداهية والفتك– بدل "**شرّه**"، التي لا يَعرفُ المسلمون دلالتها في هذا السياق، إذ قالوا للنبي صلى الله عليه وآله مستفهمين: وما بوائقه؟ فقال صلوات الله وسلامه عليه: "شرّه"، وهذا يبصّرنا بأنّ التعبير النبوي بهذا اللفظ مقصود، ليبلّغ به عن معنى مَروم بطريق اللّفظ، من ظاهر جرسه وصوته وهمسه.

ويؤيد هذا حديث أبي هريرة في الصحيح: ((**لا يدخل الجنة من لا يأمن جارُه بوائقَه.**)) [24]

لتؤدي من خلال استعماله بهذا الشكل فائدتين: الأولى: جذب انتباه المستمع وإثارة دهشته في استعمال غير المألوف، والثانية: ما في هذه الكلمة من صوت انفجاري يعكس الحالة الشعورية للرّسول صلوات الله عليه وآله من غضب وانفعال على من يؤذي جاره، و يدلّ على ذلك تكرار القَسَم: "والله لا يؤمن" في أوّل الحديث ثلاث مرات، وما هذا التّكرار إلا تعبير عن الانفعال الذي يصحب التعبير عن حالةٍ وجدانيةٍ تصيب المتلقي بالدَّهشة والتأثُّر، فيصبح أسيراً وجزء أساسياً من العمل الإبداعي. [25]

المنارة للاستشارات

ويؤكد لنا علماء الصوت قديما أنّ المتكلم لما يكرّر الحرف داخل الكلمة؛ فإنه يمثل تكرار المعنى الذي هو أصل مادته سواء أكانت فعلا أو صوتا، وهو ما أشار إليه ابن جني في حديثه عن لفظ الزّعزعة والقَلْقَلَة والصَلْصَلة، ويتضح أثر هذا الصّوت في معناه ودلالته.

ومن مُشاكلة الدّال للمدلول في الحديث النّبوي الشّريف، أن ترى اللّفظ الواحد يرسم صورة المعنى رسمًا تامًّا، أو يساعد في أكبر حيّز من الإطار على تصويره أو تأكيد معالمه في جوانب الصّورة.

ولبيان ما سبق نسوق هذا الحديث: عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دَخَلَ عَلَى أُمِّ السَّائِبِ أَوْ أُمِّ الْمُسَيَّبِ فَقَالَ: ((**مَا لَكِ؟ يَا أُمَّ السَّائِبِ أَوْ يَا أُمَّ الْمُسَيَّبِ تُزَفْزِفِينَ؟ ...**)) (26)

وأصل الزّفيف في اللّغة (27) الحركة السريعة، ومنه زفّ الظليم – النّعام- إذا أسرع حتى يسمع لجناحه حركة، فكأنه عليه الصّلاة والسّلام سمع ما عرض لها من رعدة الحمى، قال تبارك وتعالى: {**فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ**} [الصافات: 94].

هذا الفعل – تُزَفْزِف- يرسم لنا صورة فَكَيْ ابن السّائب -رضي الله عنها- ووجهها في حركة سريعة قَسرية تدلّ على نوع المرض الذي هو عرضه، ومضعّف الرباعي يصحبه التكرار المتلاحق في الحدث الذي يدلّ عليه، والنبي صلّى الله عليه وسلم يعرف من أعراض مرض أمّ السّائب، لكنّه تلطّف سائلا ليؤنسها بحديثه أوّلا، وليستدرجها إلى راحة نفسية ببثّ الشّكوى. (28)

بل هناك من الباحثين من يؤكّد على أنّ طول الكلمة وقِصَرها؛ كثيرا ما يكون ذا وشيجة بدلالتها فضلا عن غلظة اللّفظ وفضاضته، أو عذوبته ورقته.

المنارة للاستشارات

وَفِي حَدِيثِ الخُيَلاَء: ((**بينما رَجُلٌ يَجرّ إزاره مِنَ الخُيَلاء خُسِف به فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الأرض إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ.**))[29]، جاء لفظ الجَلْجَلَةُ يحاكي: حَركة معَ صَوْت، والمعنى: أن المتكبّر ينزل في الأرض مضطربا متدافعا. أَيْ يَغُوص فيها حِينَ يُخْسَفُ بِهِ، لكن الإبداع يكمن -لمن تأمّله- في توظيف الفعل "جَلْجَلَ" دون غيره من الألفاظ، لأنّ ما يرسمه لنا هذا الفعل في الذّهن من جمع الصّوت إلى حركة الغوص؛ قد لا يصوره لفظ آخر كلفظ: يهوي مثلا أو يتدافع.

ومن السّبائك النّبوية التي تتجلّى فيه ظاهرة المحاكاة؛ قولُه الصّلاة والسّلام: **((الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ، لَهُ أَجْرَانِ.**))[30]

"يَتَتَعْتَع" فعل نشأ من مكرر "تع"، والتاء حرف شديد هامس، والآخر وسط بين الشّديد والرّخو، إلا أنه يمثل بالمقطع المكرّر في الماضي "تع تع" معاناة الناطق حتى ينطق بالجزء من اللّفظ أكثر من مرة لشدّته على اللسان، كمن يهزّ الجسم في مكانه مرة ومرة، يحاول نقله، فكلمة واحدة أعطت صورة اللسان وهو يحاول أن ينهض بحمله من جانب فيثقل من آخر، وصوت المقطع القصير يدلّ على قصر الهمّة عن الاندفاع.[31]

ومن الأحاديث النبوية التي تجلت فيها ظاهرة المحاكاة البنائية؛ قوله عليه الصلاة والسلام: ((**إنّ الله يبغض كلَّ جعظريّ جوّاظ سخّاب في الأسواق جيفة بالليل حمار بالنهار، عالم بأمر الدنيا، جاهل بأمر الآخرة.**))[32]

وفي لفظ: ((**لا يدخل الجنةَ الجوّاظُ ولا الجعظريُّ .**))[33]

المنارة للاستشارات

فلفظ "الجوّاظ"؛ يعني في اللغة: الفظّ الغليظ الجافي، وقيل: هو كلّ جمّاع، والجعظري: هو الشّديد المختال في مشيته.

فأيّ غلظة وفظاظة لا يتصوّرها السّامع عند سماع هاتين اللفظتين، ولو لم يفسّرها لك المفسّرون، حتى كأنّه يمكنه الاستغناء عن المعاني لنيابة الألفاظ بما صوّره اللّفظ من قبح بالغ، ومبهم.

لذلك يقول العلماء: "فالثقلُ والطولُ في اللفظ؛ يصوّر الثقلَ والامتدادَ في الموصوف"، وقد جاء "جواظ" على صيغة المبالغة مضعّف العين ممتد المطيّ مختوما بالظاء؛ التي ينتهي إليها إفراط الغِلظة، وهناك من فسّرها بالعُتلّ.(34)

أمّا لفظة "الجعظري" فناهيك بما يجري به لسانك تصويرا لمدلولها الفظيع، فدع لسانك يرسم في مخيلتك كلّ معاني الغلظة والجلافة في هذا الصّنف من النار، فلو جاءت اللّفظة النبوية بلفظ: الجافي أو المتكبّر أو الجمّاع أو غيرها من الألفاظ الأخرى لن تحاكي لنا المعاني الظاهرة والإشارات الخفية التي صورتها العبارة النبوية، وهذا من إبداع البلاغة التصويرية في لفظ الحديث النبوي.

يقول ابن جني موضحا نظرية "المحاكاة": ((فكلّما ازدادت العبارة شبها بالمعنى؛ كانت أدلّ عليه، وأشهد بالغرض فيه .))(35)

من روائع التصوير الفني في البيان النّبوي ما جاء من طريق الإيحاء الصوتي حيث يرسم المدّ الصوتي بالألف صورة مشية مكروهة نهى عنها المصطفى عليه الصلاة والسّلام، وهو لفظ "يتمطّى" رسم صورة عملية مرئية لكِبْر ذلك الكافر وخيلائه الفارغة، قال الفراء: المطا هو الظهر، فيلوي ظهره تبخترا، ومن هذا ما ورد في الحديث الشريف أنّه صلّى الله عليه وسلّم قال: ((**إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي الْمُطَيْطَاءَ، وَخَدَمَتْهُمْ**

المنارة للاستشارات

فَارِسُ وَالرُّومُ سُلِّطَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ.)) [36] وذلك أن يلقي الرجلُ يديه، مع التكفّي في مشيته" وهي مشية المتبختر الذي يمدّ يديه عند مشيه.

فقد حاكت الصورة الصّوتية للفظ: "مُطَيطَاء" على وزن حُمَيراء؛ مدى التمطّط والامتداد والاستطالة في مشية الموصوف، تلك المشية الممقوته، مشية التلوِّي صعودًا إلى الأعلى ونزولاً، فكأن استعلاء اللسان إلى الحنك الأعلى عند النطق بالطاء يحاكي لنا مدى الترفع الذي أشرب في نفس الماشي، كما أن الاستعلاء من صفات القوّة التي تناسب التكبّر والخيلاء، كما أن المدّ بعد الطاء وهي من حروف التفخيم تدلنا وتبصرنا بوجود امتداد وتعاظم، كلّ هذه الإيحاءات يرسمها هذا اللّفظ النّبوي المبدع.

خاتمة:

أخْلُصُ في الأخير إلى جملة من النتائج، أذكر منها:

– يتسمّ الحديث النبوي بخصوصية في الأداء فهو بلفظه قادر على التواصل عبر الأجيال والعصور

– من أبرز الخصائص الفنية في البيان النبوي أن ترى لفظا واحدا في متن الحديث يرسُم صورة المعنى الكامل، أو يساعد على تصويره وتأكيد معالمه في جوانب الصورة.

– جاء التأكيد على البنية الصّوتية التي جاءت كبديل عن عناصر القافية والوزن في الشّعر، وفي هذا تنبيه على أنّ الحديث النّبوي يحمل من العناصر الأسلوبية ما يجب أن يوقف عليه، لذلك اخترت المحاكاة كأنموذج يلج به الباحثون إلى الجوانب الفنية الأخرى.

– من المصطلحات الدالة على ظاهرة المحاكاة: الإيحاء الصّوتي، المناسبة بين الألفاظ والمعاني، التوليد الصوتي، تصوير المعنى بجرس الصوت، والمضاهاة.

المنارة للاستشارات

قائمة المصادر والمراجع:

1- الإبانة الكبرى، لابن بطة الحنبلي، ت: الوليد بن محمّد نبيه بن سيف النصر، دار الراية للنشر والتوزيع الرياض، ط1، 1418هـ.

2- جلاء الأفهام في فضل الصّلاة على محمّد خير الأنام، ابن قيم الجوزية، ت: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط دار العروبة، الكويت، ط2، 1407هـ-1987م.

3- الحديث النّبوي الشريف من الوجهة البلاغية، كمال عزّ الدين، دار اقرأ، بيروت، ط1، 1404هـ- 1984م.

4- الخصائص، ابن جني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، دت.

5- الصحاح، الجوهري، ت: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4.

6- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، العيني، دار إحياء التراث، بيروت، دط، دت.

7- غريب الحديث، ابن قتيبة، ت: عبد الله الجباري، مطبعة العاني، بغداد، ط1، 1379هـ.

8- غريب الحديث، القاسم بن سلام، ت: محمد عبد المعيد خان، مطبعة دار المعارف، حيدر آباد ط1، 1384هـ-1964م.

9- القيم الجمالية في الأحاديث النبوية، حازم كريم عباس، أطروحة دكتوراه، جامعة القادسية، 2012.

المنارة للاستشارات

10- الكتاب، سيبويه، ت: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1408هـ- 1988م.

11- لسان العرب، ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ.

12- معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ت: عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399هـ- 1979م.

الحواشي والإحالات:

(1)- الكتاب، ج3، ص509.

(2)- الكتاب، ج4، ص14.

(3)- الخصائص، ج1، ص66.

(4)- المصدر نفسه، ج2، ص154.

(5)- المصدر نفسه، ج2، ص164.

(6)- ينظر: المثل السائر، ج1، ص250.

(7)- جلاء الأفهام، ت: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، دار العروبة، الكويت، ط2، 1407هـ- 1987م، ص147.

(8)- جلاء الأفهام، ص150.

(9)- ينظر: الخصائص، ج2، ص164.

(10)- الصَّحل تعني: بَحَحٌ فِي الصَّوْتِ. يُقَالُ لِلْأَبَحِّ: الْأَصْحَلُ، ينظر: مقاييس اللغة، ج3، ص334.

(11)- الخصائص، ج2، ص165.

(12)- الإبانة الكبرى، لابن بطة الحنبلي، ج7، ص24.

(13)- أبو عبيد القاسم بن سلام الهروي ولد سنة: 157ه عالم باللغة والحديث له فيهما عدة مصنفات، توفي سنة224.

(14)- غريب الحديث، القاسم بن سلام، ج1، ص305.

(15)- ينظر: معجم مقاييس اللغة، ج4، ص506.

(16)- ينظر: المصدر نفسه، ج5، ص93.

المنارة للاستشارات

(17)- ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، العيني، دار إحياء التراث، بيروت، ج6، ص183.

(18)- غريب الحديث، القاسم بن سلام، ج4، ص187.

(19)- الخصائص، ج2، ص159.

(20)- غريب الحديث، ج4، ص187.

(21)- أخرجه: الطبراني في الكبير، والبزار في المسند، والحديث صححه الألباني، ينظر: السلسة الصحيحة، رقم: "2661".

(22)- غريب الحديث، ج1، ص412.

(23)- صحيح البخاري، ج8، ص10، "6016".

(24)- أخرجه البخاري في "الأدب المفرد": (121) ، ومسلم، (46) (73).

(25)- القيم الجمالية في الأحاديث النبوية، حازم كريم عباس، أطروحة دكتوراه، جامعة القادسية، 2012، ص108.

(26)- صحيح مسلم، ج4، ص1993، (2575).

(27)- ينظر: الصحاح، الجوهري، ت: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، ج4، ص1438، ولسان العرب ابن منظور، ج9، ص136.

(28)- ينظر: الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، ص291.

(29)- حديث متفق عليه.

(30)- صحيح مسلم، ج1، ص549، (798).

(31)- ينظر: الحديث النبوي الشريف من الوجهة البلاغية، ص292.

(32)- أخرجه ابن حبان في صحيحه (1975).

(33)- سنن أبي داوود- الأدب (4801).

(34)- الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، ص293.

(35)- الخصائص، ج2، ص156.

(36)- ينظر: صحيح ابن حبان، ج15، ص112، (6716)، والسلسلة الصحيحة، الألباني، ج2، ص642.

المنارة للاستشارات

Phonological Simulation and Its Aesthetic Values in the Prophet's Hadith

Dr. Amara Miloud

Department of Islamic civilization

Institute of Islamic Sciences - El-Oued University

miloud.am84@gmail.com

Abstract:

The phonemic simulation phenomenon is one of the most important stylistic means, and it is one of the many energies that language possesses in expression, and it aims at trying to link the level of the sensory structure of speech with the level of semantic structure in the language, as well as the awareness of the existence of the natural relationship between the word and its meaning.

Proceeding from this idea; This research came to study the hadiths as an applied model through which this phenomenon is demonstrated by highlighting its suggestive and aesthetic capacity, and its verbal symmetry.

The research has followed; Descriptive and analytical approach, through three main axes, namely:

1-The relationship between sound and significance in our linguistic heritage

2- The hadith of the Prophet in the Phonology lesson (the level of phonemic simulation).

3 -The problem of the signifier of the signified in the hadith of the Prophet (the level of structural simulation).

Keywords:

Simulation; the sound; Significance; style; the Prophet's Hadith .

المنارة للاستشارات